عنوان المحاضرة: معركة الزقاق لرشيد بوجدرة، الثلاثية لمحمد ديب.

مقدمة:

لم تكن **الكلمة الأدبية في الجزائر** مجرد ترف فكري أو صياغة جمالية منعزلة عن واقعها، بل كانت منذ اللحظات الأولى للاحتلال الفرنسي رفيقة الدرب، وسلاحا موازيا في معركة الصمود وتقرير المصير، لقد استشعر المثقف الجزائري مبكرا خطورة الطمس الهوياتي الذي مارسه الاستعمار، فجاء الأدب ليكون الذاكرة الحيّة التي تحفظ ملامح الشخصية الوطنية، والمعبر الحقيقي عن آلام الشعب وآماله في الحرية والسيادة.

ومع تطور الأشكال التعبيرية؛ **برزت الرواية الجزائرية** كأداة تحليلية ونقدية قادرة على استيعاب تعقيدات الواقع الاستعماري، وقد اتخذ هذا الإبداع الروائي مسارين لغويين متوازيين؛ الأول كُتب بـــ: **اللغة الفرنسية** (لغة الآخر، الاستعمار)التي طوعها الروائي الجزائري ليفضح بها ممارسات المستعمر أمام الرأي العام العالمي، والثاني كُتب بـ: **اللغة العربية** التي مثلت استعادة للذات واللسان الأصيل وتحديا لسياسة التجهيل والفرنسة.

وإن هذا التنوع اللغوي لم يمنع من وحدة الهدف والوجهة، وهو ما نسعى لتوضيحه من خلال مقاربة تطبيقية لنموذجين رائدين في الأدب الجزائري، حيث سنقف عند ثلاثية **محمد ديب** (الدار الكبيرة، الحريق، النول)، بوصفها تأريخا سيوسيولوجيا لبدايات الوعي الثوري باللغة الفرنسية، ومقابلتها برواية **معركة الزقاق لرشيد بوجدرة**، التي تعيد صياغة الذاكر النضالية بلسان عربي مبين وبتقنيات حداثية، لنكشف من خلالهما كيف تحول النص الأدبي إلى أداة مقاومة ثقافية وتجسيد حيّ لمعركة الصمود ضد الاستعمار بكل تجلياته.

1/ محمد ديب: 1920م - 2003م أحد أعمدة الأدب الجزائري ،وُلد في تلمسان، حيث تلقى تعليمه الابتدائي إلى أن تحصل على الشهادة الابتدائية بفرعيها الأهلي والأوروبي سنة 1931م، غير أنّ طفولته تميّزت بمآسي كانت لها انعكاسات عميقة ومتميزة على طبعه وفي أعماله الأدبيّة، فقد عرف اليتم وهو لم يكد يتجاوز العاشرة من عمره لمّا توفي والده سنة 1931م، كما تميزت طفولته بحادث وقع له بساقه ألزمه الفراش لمدّة طويلة وكاد يودي بها إلى البتر ، لأن ذلك كان بمرحلة ما قبل اكتشاف البنيسلين ، وبالفترة نفسها نذكر الدور الذي لعبه معلم شيوعي – روجي بلسيان- في تلقينه الثقافة الفرنسية، كما قرض الشعر وهو في الرابعة عشر من عمره، تحمل المسؤولية الأسرية وهو صغير، تنقل بين وظائف متعدد (معلم بقرية زوج بغال، محاسب بمكاتب جيوش الحلفاء، مصمم زرابي بتلمسان ، صحفيا بجريدة الجمهورية، لتحق بجامعة الجزائر حيث درس الآداب بين سنتي 1940م – 1944م وكان يمارس الكتابة باللغة الفرنسية، ومن أهم أعماله التي تُرجمت إلى العربية:

الدار الكبيرة، الحريق، في المقهى، مصنع النسيج أو النول، بابا فكران، الظّل الحارس، من يتذكر البحر، رقصة الملك، إله في الوحشية، تركيبات(تشكيلات)، سيّد القنص، القطّ الحارد، أومنيروس، هابيل، نيران جميلة، أيتها الحياة، سطوح أورسول، إغفاء حواء، ثلوج من رخام، صحراء بلا نهاية، تلمسان المكان الخاص للكتابة، الليلة المتوحشة، إذا رغب الشيطان الشجرة التي تقول، الطفل الجاز، كصوت النّحل، المجموعة الكاملة للأشعار.

ولقد تميز أسلوبه بالو اقعية الاجتماعية، إذ قدم لوحات دقيقة عن الحياة تحت الاستعمار، مع إبراز معاناة الشعب الجز ائري وتكوّن وعيه الوطني، وكان من أشهر هذه الأعمال الثلاثية.

2/ قراءة في الثلاثية: تعتبر هذه الثلاثية محطة فارقة في تاريخ الأدب الجز ائري ، حيث نجح ديب في تطويع اللغة الفرنسية ببراعة لتكون وعاءً يعكس من خلاله مرارة الو اقع الجز ائري إبان الحقبة الاستعمارية، ورغم كتابتها بلغة الآخر، إلا أنّها نبضت بتفاصيل الهوية الوطنية وآلام الطبقة الكادحة، وإن كان لا بد من كلمة عن رو ايات محمد ديب الثلاث التي نقدم – ترجمتها- إلى العربية (وهي في الحق رو اية واحدة من ثلاثة أجزاء) فخير ما نفعله هو أن نستمع إلى محمد ديب نفسه يتحدث في كلمة بعث بها إلينا لتكون بمثابة تقديم للطبعة العربية لرو اياته وهي:

كان لا بد للسنين المائة والثلاثين التي قضتها فرنسا في تمدين جز ائرنا من أن تؤتي ثمراتها، والحق أنها قد أتت هذه الثمرات، فيا لها من ثمرات! ستعرفون هذه الثمرات: إن وصفها هو موضوع هذه الرو ايات الثلاث، غير أنني أحس – وأسفاه- أن اللوحة التي رسمتها لا تبلغ من السعة كل ما كان ينبغي أن تبلغه، كان هناك أشياء كثيرة مفرطة في الكثرة يجب تصويرها يحتاج إلى موهبة، وقد اضطررت أيضا إلى حذف عدد كبير من العناصر حرصا مني على أن يصدقني القارئ، ذلك أنني وجدتني أمام وقائع كثيرة لا يصدق العقل أن تقع....

1/ الدار الكبيرة: نُشرت عام 1952م تدور أحداث الرواية حول أوضاع الجزائر عام 1939م وتحكي قصّة عائلة متعدّدة وفقيرة جدا، بطل هذه الرواية طفل صغير لا يتعدى سنّ العاشرة من عمره، لا يأكل كلّ يوم ليسد رمق جوعه، اسمه عمرو، وهو ابن هذه الأسرة ويلتقي بأطفال أشقى منه، أطفال كأنهم الجراد من فرط هزالهم ونحولهم، ملابسهم لا تعدو أن تكون خِرقًا مجمعة، أما أقدامهم فتحميها نعال من جلود الشياه مربوطة بحبال الحلفاء، وربّما ركضوا حفاة بغير شيء في الأقدام أكثر الأحيان.

فهؤلاء الأطفال الذين يمثلهم عمر، يبدون مبكرين في نموهم كما يرى الكاتب محمد ديب، وإحساسهم بالشقاء يلمع في أعينهم، لذا فإنّ عمر يشعر بينهم بأنه طفل صغير، ولكنّه كان يتميز عن هؤلاء الأطفال قليلا لأنه كان يتكلم اللغة الفرنسية، ويعرف أنّ الأرض كروية، وأنّ الشمس ثابتة، وأنهم هم الأطفال يدورون مع الأرض، ويجيد العمليات الحسابية، وعلى الرغم من تميز عمر إلا أنه طفل يتيم يعرف معنى الجوع الحقيقي، والدّار بالنسبة إليه دار جوع، ولكنّ جدرانها لا تجوع كما يجوع سكانها وهنا يتساءل عمر: لماذا نحن فقراء؟ هل صحيح أن هذه قسمتنا وأنّ لا أحد يعلم؟ لكن هناك أغنياء لأنه يلتقي بهم ممثّلين في بعض زملائه في المدرسة، ومع ذلك يرفض أن يسرق أو يتسوّل، وأم عمر المسماة – عيني-هي أرملة لنجّار، وهي تتولى مسؤوليات معقدة للأسرة، فهي امرأة وأم، وعاملة وربة بيت، كما أنّها مضطرة إلى العمل لكي توفر الخبز لأبنائها الأربعة؛ عويشة، مريم، جيلالي، عمر، أما جيلالي فقد مات مثل أبيه، وبعد موته تحملت عيني مسؤولياتها، ويبدو الحمل ثقيلا عليها، فرغم الآلام فإنّ عليها أن ترعى أمها، وتعيش عيني في وسط اجتماعي – بدار السبيطار-جارات كثيرات، أرامل مثلها مثل (يمينة، زينة)، والرواية تتضمن عدة قضايا ومنها؛ الجوع:

كان عمر يحصل على الخبز في دار سبيطار بطريقة أخرى، كانت يمينة؛ وهي امرأة قصيرة حلوة القسمات، تعود من السوق في كل صباح مشوية..... حتى لقد كانت تعطيه من حين إلى حين قطعة من اللحم أو سردينة مقلية، وكانت في بعض الأحيان تناديه بعد الغداء أو العشاء، حتى إذا أزاح الصبي الستارة وكانت كل أسرة تسدل ستارتها في مواعيد تناول الطعام فأمرته أن يدخل، ثم جاءت بطبق قد احتفظت بشيء من طيب الطعام فيه، وكسرت الرغيف بقفة ملأى، وكثيرا ما كانت ترجو عمر أن يقوم عنها ببعض الأعمال، يشتري لها الفحم، ويملأ دلوها من ماء العين، ويحمل عجينها إلى الفرن .....فكانت يمينة تكافئه عند عودته بقطعة من الخبز مع ثمرة من الفاكهة أو مع الفلفل المدور الأبيض، ووضعت كل ذلك أمامه.

ولقد جسدت **الرواية حضورالوطن** والذي حضر من خلال المقطع السردي التالي:

من منكم يعلم معنى كلمة الوطن..... فقامت حركات عكرت هدوء الفصل، فضرب المعلم إحدى المناضد بعصاه، فأعاد إلى القاعة النظام، بحيث التلاميذ فيما حولهم، وطافت نظرات بين المناضد، وعلى الجدران، ومن خلال النوافذ، وفي السقف، وفي وجه المعلم، ظهرواضحا أن الوطن ليس في أي مكان من هذه الأمكنة التي طافت بينها نظراتهم، أن الوطن ليس في الفصل، ونظر التلاميذ بعضهم إلى بعض، أن منهم من كان يضع نفسه خارج المنافسة، ويصبرراضيا وسعيدا، رفع إبراهيم بالي اصبعه..... فرنسا هي أمنا الوطن

وأما شخصية عمر فتثير جملة من التساؤلات حول هذه الإجابة.

كانت شفتا عمر مزموتين، فهو يعجن في فمه لقمة من الخبز فرنسا، عاصمتها باريس إنه يعرف هذا، الفرنسيون الذين يراهم في المدينة، قادمون من تلك البلاد، وإذا أراد أحد أن يذهب إلى هناك أو أن يعود من هناك، عليه أن يجتاز البحر، أن يركب باخرة ....البحر، البحر.....الأبيض المتوسط، إنه لم ير البحر في حياته، ولا رأى باخرة، ولكنه يعرف : يعرف أن البحر مساحة كبيرة من الماء المالح، وأن الباخرة نوع من خشبة كبيرة عائمة ....وفرنسا، رسم ملون بعدة ألوان، ولكن كيف تكون تلك البلاد أمه.....إن أمه في البيت .....إنها عيني، وليس له أمان اثنتان، - عيني – ليست فرنسا، ليس ثمة أشياء مشتركة بين أمه وفرنسا لقد اكتشف عمر الكذبة.....فرنسا ليست أمه، سواء كانت هي الوطن أم لم تكن هي الوطن، إنه يتعلم أكاذيب.

ويواصل عمر في طرح جملة من الأسئلة التي تتعلق بالوعي الوطني حيث يقول:

ليس الوطن هو الأرض التي نعيش فوقها فحسب، بل هو كذلك كل ما على هذه الأرض من سكان، وكل ما فيها بوجه الإجمال، يستحيل أن يفكر المرء في الخبز طوال الوقت، سيحتفظ عمر بحصة الغد لصاحب القميص الكاكي، هل يشمل الوطن صاحب القميص الكاكي أيضا....المعلم يقول هذا.... أنه لأمر غريب مع ذلك أن يكون المقمط بالقميص الكاكي .....ثم أمه؟ عيوشة؟ ومريم؟ وسكان دارسبيطار؟ هل هؤلاء جميعا يعدون من الوطن؟ وحميد سراج أيضا؟ وحين يأتي من خارج الوطن أناس أجانب يدعون أنهم هم السادة، فإن الوطن يكون عندئذ في خطر، هؤلاء الأجانب أعداء يجب على جميع الأهالي أن يدافعوا عن الوطن، وأن يقدموا حياتهم ثمن ذلك، أي بلد هو بلده؟ إن عمر يود لو يسأل المعلم ذلك، كي يعلم، أين أولئك الخبثاء الذين يدعون أنهم هم السادة .....من هم أعداء وطنه..... وقال المعلم بصوت خافت: ليس صحيحا ما يقال لكم من أن فرنسا هي وطنكم.

ولقد اعتمد الروائي أسلوب الواقعية النقدية، فلم يكتفِ بنقل صورة فوتوغرافية للفقر، بل غاص في الجوانب النفسية والاجتماعية، ممهدا الطريق لفهم الأسباب التي أدت لاحقا إلى اندلاع الثورة التحريرية، وتنتهي الرواية ببقاء عمر في حالة من الترقب والانتظار والتساؤلات" كان عمر لا يعرف ماذا تعني كلمة الحرب، إن الحرب وشيئا آخر كان يشعان في قلبه فرحا خفيا" وهذا ما سيتضح مع الأجزاء الموالية.

2/ الحريق: وفي هذا الجزء الثاني من الثلاثية، يروي محمد ديب كيف وصل رجال الاستعمار إلى القرية و وضعوا قوانينهم لانتزاع بعض الأراضي من الفلاحين وتحويلهم إلى أجزاء عندهم، بعدا اشتعل حريق في القرية، ويكون هذا الحدث فرصة للاحتجاج من أجل القبض على عناصر نشطة من الفلاحين، لقد نشب حريق ولن ينطفئ أبدا حتى بعد الاستقلال ونيل الحرية كما وصفه محمد ديب، والمقطع التالي من الرواية يوضح هذا:

ألسنا كالأجانب في بلادنا؟ والله أني أيها الجيران، لا أقول إلا ما أفكر فيه وأشعر به، كأننا نحن الأجانب وكأن الأجانب هم أهل البلاد، إنهم بعد أن ملكوا كل شيء، يريدون أن يملكونا نحن أيضا دفعة واحدة، وإنهم اتخموا من ثروات أرضنا، يرون أن واجبهم أن يحملوا لنا البغض والكراهية، صحيح أنهم يعرفنون كيف يزرعون، لست أماري في هذا، ولكن ذلك لا ينفي أن هذه الأراضي أراضينا، لقد انتزعت منا سواء أكنا نفلحها بالمحراث أم كنا لا نفلحها البتة، وهم الآن بعد أن استولوا على هذه الأراضي، أراضينا، يخنقوننا خنقا، ألا تعتقدون أننا كمن أُدخل إلى سجن وأمسك بخناقه؟ أصبحنا لا نستطيع أن نتنفس، أيها الإخوة، لا نستطيع أن نتنفس.

3/ النول: صدرت عام 1957م تركز على معاناة الجزائريين الاقتصادية والاجتماعية، وتكشف استغلال الاستعمار للطبقات الكادحة، حيث يعمل عمر في ورشة نسيج قديمة ترجع إلى القرون الوسطى، والنّاس فيها يمارسون أعمالا قديمة منذ سنوات، وتصوّر لنا هذه الرواية واقع العمال المزري في مصنع النسيج الذي يقع تحت الأرض، وكل المشاكل التي تصادفهم مع أرباب العمل، وتقدّم لنا صورة أيضا عن المتسولين القادمين من الريف والبوادي المجاورة، هربا من الجوع الذي يطاردهم في كلّ مكان، فامتلأت بهم الطرقات، كما تدور حوارات كثيرة بين العمال حول الحالة السيئة التي يعيشونها والجميع يسعى لتطوير كسب رزقه.

لقد أصبح شعبنا شديد الإحساس شديد الإحساس بآلامه، بالإهانات التي تحملها في الحاضر والماضي.... أصبح شديد الإحساس إلى حد يصعب إدراكه، شعر الفتى مرة أخرى بثقل الجدران وكثافة الضوء المنخول، وركود الأشياء، وأصبح شعبنا أيضا ضديدا الإحساس بكرم النفس وكلمات المودة،، لاشك أن هذا كله كان موجودا في الماضي ، ولكن قلب شعبنا يخفق كما لم يخفق في أي يوم مضى، فما الذي سيخرج من ذلك؟ أرجو أن يخرج منه بخير.....

وهذه الثلاثية تعد بمثابة مرجع أول للأدب الجزائري الحديث لأنها وثقت الواقع الاستعماري وعبّرت عن تكوّن الوعي الوطني.

* رشيد بوجدرة: ولد في 05 سبتمبر 1941م وهو روائي وشاعر جزائري وُلد بمدينة عين البيضاء، درس الفلسفة في الجزائر ثم في فرنسا، وعُرف بمواقفه السياسية والفكرية الجريئة، كتب باللغتين العربية والفرنسية، ويمثل نموذج الكاتب التجريبي الذي كسر البنية التقليدية للرواية، فهو:

يعدّ من الروائيين الأوائل الذين اتخذوا التجريب وتقنياته مسارا في كتاباتهم الروائية، فتحوله إلى الكتابة باللغة العربية ، ووعيه بالواقع المعيش، لما يطرحه من التساؤلات التي تكشف عن إثبات الذات وتأكيد هويتها، محاولة تأصيلها بالعودة للتراث والحفر في أغوار التاريخ، توضيح مرجعيته الفكرية في الإبداعية التي اعتمد فيها على الذوات والحوس والأشكال والألوان وتوظيف التراث مشتغلا بكثافة على الذاكرة التي استنطقت التراث العربي الإسلامي وتفاعلت معه وفق معطيات الراهن.

إن عودة بوجدرة إلى التراث الإسلامي وخاصة الفتوحات، بدوره فتح آفاقا فنية جديدة في السرد الروائي الجزائري والعربي، وما يحمله منن وعي بالعلاقات الماضية والراهن وبما هو تراثي وحداثي، فالتفاعل القائم بين الرواية والتاريخ الواقع والمتخيل، تبلور في جدلية الأنا والأخر عاكسا بذلك تطلعات الفرد، التواق إلى الحرية وإثبات هويته بإعادة الاعتبار للتراث، والمراهنة على استحضار الماضي هو بمثابة الاستشراف للمستقبل والتحرر.

من أبرز أعماله:

التفكك. * الحلزون العنيد 1977م تم ترجمتها إلى العربية من طرف صالح القرمادي سنة 1984م. * الإنكار 1969م.

* ضربة جزاء ترجمها مرزاق بقطاش سنة 1985م.

* معركة الزقاق. *من أجل إغلاق نوافذ النوم (شعر

*ألف وعام من الحنين. *ليليات امرأة آرق(رواية).

* يوميات فلسطينية (مذكرات).

ويتميز أسلوبه ب:
بالكثافة اللغوية، التكرار، التوتر الإيقاعي، مما يعكس و اقعا اجتماعيا وسياسيا مأزوما.

معركة الزقاق: قدم رشيد بوجدرة في نصه معركة الزقاق نصا روائيا مؤنسنا ينبض بالمشاعر والرؤى التي تعمل الذاكرة فيها دور الوسيط بين تاريخ الانتصار الجزائري على المستعمر الفرنسي، وتاريخ التشكل الإنساني في حركة استرجاعية تمزج بين الوعي واللاوعي، وبين الإدراك والتغييب لمعطيات لمح الكاتب إليها ثم وضعها في دائرة المسكوت عنه، وكذا عبر لعبة التشكيك في التاريخ العربي الذي كانت له معالم معركة الزقاق التي خاضها -طارق بن زياد - خلفية رمزية للتوصل إلى نتيجة عدمية تساوى معها مصير الإنسان والفرد مع مصير الإنسانية جمعاء في نهاية الرواية، التي تعد رمزا لاستعادة الذاكرة في الأنا الفردي - الجسد، وفي الأنا الجمعي – الوطن" .

ويشير صاحب كتاب تحفة الأنفس إلى خطبة طارق بن زياد في قوله لما التقى العرب فاقتتلوا ثلاث أيام أشد قتال، فرأى طارق ما للناس فيه من الشدة فقام يعظهم ويحثهم على الصبر ويرغبهم في الشهادة، ويبسط في آمالهم ثم يورد نص الخطبة: أيّها الناس أين المفر؟ وتنوه هذه الرواية الإسلامية إلى ما كان لهذا الخطاب من أثر فعال في إذكاء همم المسلمين وشجاعتهم.

ولقد قدم رشيد بوجدرة في هذا المتن النصي:
* مزج بين الذاكرة والتاريخ حيث يستخدم الكاتب معركة طارق بن زياد ليتناول الذاكرة الجمعية والفرز الإنساني، مع تشكيك في التاريخ الرسمي وخلخلة الرؤية السائدة، وتتميز الرواية بالجرأة في الطرح ونقد التاريخ، وتعتبر رمزا لاستعادة الذاكرة في الأنا الفردي والوطني.

ومن أهم خصائص الرواية:

* **دمج الذاكرة والتاريخ:** تستخدم الذاكرة كوسيط بين الانتصار التاريخي على الاستعمار.

* **تعددية المعنى:** تقدم الرواية الرموز بطريقة لا تترك الباحث يجيب عن كل التساؤلات التي تخطر بباله، وتُظهر معركة طارق بن زياد كخلفية رمزية لنتيجة عدمية.

* **استعادة الذاكرة:** تعتبر الرواية رمزا لاستعادة الذاكرة في الأنا الفردي " الجسد" وفي الأنا الجمعي " الوطن"

*** النقد والتساؤل:** تهدف الرواية إلى مساءلة الجانب التاريخي والفني في الرواية، وتظهر الروح النقدية للروائي الجزائري رشيد بوجدرة اتجاه التاريخ العربي.

مراجع المحاضرة:

ينظر: نسيمة يعقوبي: دراسة كرونولوجية وفنية في آثار محمد ديب الأدبية، مذكرة دكتوراه علوم، جامعة الأميرلا عبد القادر، الجزائر، 2014/ 2015

ينظر: ثلاثية محمد ديب، ترجمة سامي الدروبي، دار الوحدة، بيروت، 1985.

آمال كبير، شعرية الأنا بين تداعيات الواقع والتاريخ -قراءة في معركة الزقاق لرشيد بوجدرة، مجلة إشكالات، الجزائر، العدد06، 2014، ص 20